# تضمين الرمز ورمزية التضمين في قصة «الـ

بقلم: د. محمد الحافظ الروسي*
المغرب

**تنصرف الأبحاث عادة لدرس الأعمال الإبداعية المتميزة، أوالتي تقدم مادة موافقة للمنطلق النظري الذي يعتمده الباحث، أو التي فيها وضوح جزئية معينة هي موضوع درسه. وقد اجتمع في قصة «الريح والجذوة» للدكتور حسن الوراكلي. وهي أول قصة من إحدى عشرة قصة تضمها مجموعة قصصية تحمل هذا العنوان نفسه، كل هذه الأشياء:**

أ - فهي عمل أدبي بالغ الصعوبة والتميز، كتب بلغة فيها من الشعر وفيها من القوة وفيها من الجمال، ما يجعل لغة الفن القصصي عند صاحبها أهم عناصر جمالية القص. ولعل أبرز ما توصف به هذه اللغة أنها لغة قائمة على ما يسميه الرافعي الجملة القرآنية[1]، والتي يقابلها عنده: الجملة الإنجيلية، التي هي رطانة أعجمية معربة، وعليها معتمد أكثر الناس في هذه الأيام.

ب - وهي عمل أدبي كثير الرموز، ويأتي الرمز فيها على سبيل التضمين في أكثر الأحوال. وهو ما يعطي مادة غنية لمن يبحث في هذه الجزئية من جزئيات القصة.

ج - والرمز في هذه القصة مرتبط بالثقافة العربية الأصيلة أشد الارتباط، وهو ما يناسب المنطلق النظري الذي يقوم عليه هذا البحث والذي سيأتي تفصيل القول فيه. كما أن ذلك من علامات تميز هذا العمل. فقد نشأت ناشئة يعرف أنصاف مثقفيها فمن دونهم، فضلاً عن كبار مثقفيها، ورموز الثقافة اليونانية والغربية والوثنية القديمة، فيستعمل مستعملهم رمز: سيزيف وكيوبيد ومن إليهما، وهو جاهلٌ بذاته، وقد يكون منكراً لها، غير عارف بتراثه، وهو يظن أنه قد قتله علماً، فيعجز عن استخراج أبرز ما

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان- المغرب

في هذا التراث فضلاً عن ضواله، ثم يتحدث عن الكونية والإنسانية، ويلوك بين حنكيه معجماً من المصطلحات لا يدرك من كنهها إلا القدر الذي يخفي به جهله. ويعجبني في هذا المقام ما قاله د. إحسان عباس في سياق حديثه عن ديوان «القوس العذراء» لمحمود شاكر، وذلك إذ قال: «... ولكن لاريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيراً حين لم يهتد إلى «القوس العذراء» وأن الناقد الحديث قد سار في تلك الطريق المضلة نفسها حين أغفل تلك القصيدة. وليس من التجني أن أقول إن الشعر الحديث كان يعشو إلى أضواء خادعة حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غربية، ولم يستطع أن يستكشف أدواته في التراث كما فعلت «القوس العذراء»، ولكن أنى له أن يفعل وهو وليد اجتهاد بضعة من «تلاميذ المدارس» الذين شدوا شيئاً من الشعر الإنجليزي، فظنوا أنهم قد وقعوا على كنز دفين ليس في أدبهم نظيره، وأظن أكثر من بقي منهم حياً حتى اليوم لا يفهم قصيدة الشماخ إن أتيح له أن يقرأها، فكيف بأن يستخلص منها رموزاً لمفهومات معاصرة؟»[٢].



## المهاد النظري:

### أ - عن أي رمز نتحدث؟

إن الرمز الذي أقصده هنا هو الرمز المرتبط بالثقافة العربية الأصيلة، لأننا في أشد الحاجة اليوم إلى استعمال ذكي لرموزنا الخاصة، وإلى اكتشاف المجهول منها، في وقت يراد فيه إعادة تشكيل الذوق المسلم، بعد أن ذهب دعاة الاستغراب شوطاً بعيداً في إعادة تشكيل العقل المسلم. واستعمال هذا النوع من الرموز صعب، لأنه يحتاج إلى مبدع خاص يتميز بسعة العلم، وجودة الذوق، وحسن الاختيار، وقوة الملكة، والذكاء في استعمال الرمز، واختيار مواقعه، والجمع بين الرموز المختلفة والنصوص المضمنة الكثيرة، إن احتاج إلى ذلك. من غير أن ينقض بعضها بعضاً، مع حسن السبك وجودة التوظيف. ويحتاج إلى متلق خاص يتميز بالثقافة الواسعة وحسن التنبه.

وأظن أن هذه الصعوبة هي التي صرفت الناس عن مثل هذا الأدب، وهم الذين تعودوا أدباً «عامياً» بسيطاً، ورموزاً وثنية يدركها أشباه المثقفين، مع التوهم بأنها رموز إنسانية، وأن الرموز الإسلامية رموز دينية خاصة.

### ب - دلالة الرمز:

تمثل دلالة الرمز، في نظري، ركناً من أركان أربعة تقوم عليها دلالة الكلام عموماً. وهذه الأركان هي:

د. حسن الوراكلي

أ - دلالة اللفظ.

ب - دلالة المعنى.

ج - دلالة التركيب والترتيب.

د- دلالة الرموز والإشارات.

وأقصد بدلالة التركيب ما يسميه حازم القرطاجني بالنظم والأسلوب، أو الهيئة اللفظية والهيئة المعنوية. وأقصد بدلالة اللفظ أن اللفظ له دلالة معجمية خاصة قد يفارق بها دلالة المعنى العام الذي هو في سياقه. وهذا أمر يحتاج إلى بيان، إذا أدركنا أن الرمز لفظ أيضاً، وأنه لذلك قد تكون له دلالة منفصلة عن دلالة موضوع القصة أو القصيدة، ولكنها مع ذلك دلالة مساعدة مؤكدة للمعنى أو مؤنسة له. وهذه الدلالة الاقترانية لها ثلاثة أحوال: دلالة على سبيل اقتران التأكيد، ودلالة على سبيل اقتران التناظر، ودلالة على سبيل اقتران التخالف أو التضاد.

ومن أمثلة ذلك قول الشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦هـ):

**أرسى النسيم بواديكم ولا برحت**

**حوامل المزن في أجداثكم تضعُ**

**ولا يزال جنين النبت ترضعه**

**على قبوركم العرّاصة الهَمِعُ**[٣]

إذ يلاحظ هنا أن السياق سياق موت وهمود، وأن المعجم معجم حمل وولادة ونشأة وحياة، أي أنه استعمل معجم البسط لمعان موحشة. فكأن التخييل هنا تخييلان: تخييل باللفظ وتخييل بالمعنى. وقد درس حازم القرطاجني (٦٠٨- ٦٨٤هـ) هذا الموضع في باب تأنيس المعاني بعضها ببعض[٤]. ولنا أن نوسع هذا المعنى فنقول: إن الألفاظ من حيث هي ألفاظ لا من حيث اقترانها بأحوال أخرى تذهب إلى غير ما تذهب إليه المعاني. فإذا كان المعجم المستعمل مؤكداً للمعنى، فذلك ما نسميه اقتران التأكيد، وإذا كان دالاً على المعنى نفسه من غير قوة تأكيدية فذلك ما نسميه اقتران التناظر، وإذا كان دالاً على معنى مخالف أو مضاد لما قام عليه السياق، وصيغت له الهيئة التركيبية، فذلك هو اقتران التخالف أو التضاد. ويكون عن طريق الوحي الخفي والإشارة البعيدة. وأهمية هذا النوع الأخير كامنة في نوع التأثير الذي يحدثه، وليس في نوع المعنى الذي يحمله. ذلك أنه لا يدل في ظاهره إلا على المعنى الأول (الظاهر)، ولكنه في تأثيره يستحضر المعنى الثاني (المشار إليه، أو الذي يراد استحضار تأثيره). ولعله لذلك زعم جمع من النقاد الفلاسفة منهم ابن رشد أن هناك تخييلاً باللفظ وتخييلاً بالمعنى[٥].

إن التسليم بهذا المنطلق النظري يجرنا إلى أمر إذا تذكرنا أن الرمز في أغلب أحواله لفظ

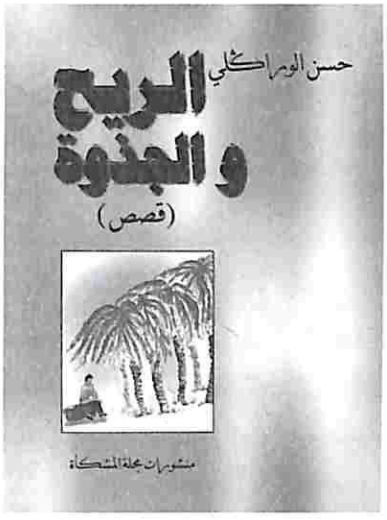


مستقل، فالرموز المركبة قليلة، لأن التركيب في الرمز ينافي خصيصة (التكثيف الدلالي) التي هي من خواص الرموز. وهذا الأمر هو أن الرمز معنى داخل المعنى، ودلالة داخل الدلالة، وأن هذه الدلالة ليست تابعة في كل الأحوال لدلالة بناء القصة أو لدلالة الهيئة الأسلوبية في القصة، أو لدلالة الهيئة النظمية فيها. فقد يكون بين دلالة القصة ودلالة الرمز تضاد أو تخالف، ولكنه عند التأمل لا يصل إلى أن يكون تعارضاً، لأن التضاد أو التخالف هنا إغناء أو تأنيس أو تنويع يحد من سورة معنى، أو يستحضر معنى آخر يحتاجه القاص يقوم مقام خلفية المسرح في المشهد المسرحي.

**ج - أدوات الرمز:**

وإذ قد تبين هذا، وأدركنا موقع دلالة الرمز بين سائر الدلالات وكيفية النظر إليها. فقد بقي أن نتحدث عن أدواته، لأن مجمل كلامنا سينصرف إلى أداة واحدة من هذه الأدوات، رأينا أنها الأبرز في قصة «الريح والجذوة» وهي أداة التضمين. وإنما يتم الحديث عن بقية الأدوات لأنها قد تتداخل في العمل الأدبي، وإنما يتم الفصل بينها لغرض منهجي يقتضي الفصل والتمييز. وهذه الأدوات في نظري هي:

**أولاً: أداة التضمين:** وطريقتها أن يضمن في العمل الأدبي نص سابق، على أن يكون هذا النص ذا دلالة رمزية أو قابلاً لأن يكون ذا دلالة رمزية.

**ثانياً: أداة الإشارة:** وطريقتها أن تتم الإشارة في الكلام إلى قضية لها بعد رمزي، أو يغلب على الذهن أن لها ذلك البعد.

**ثالثاً: أداة العبارة:** وطريقتها أن يذكر في الكلام لفظ يتقاطع أو يتصل بمدلول ليس له بعد رمزي، ولكن الكاتب يصنع له بعد

ذلك البعد عن طريق ربط خاص بين مدلوله في الكلام ومدلوله في القرآن أو التراث.

**رابعاً: أداة الإيحاء:** وطريقتها أن يُعتمد على نوع من الإحالة الذهنية، يحملها الكلام وتقتضيها العبارة ويؤيدها كلام قديم، أو حادث من حوادث التاريخ. وتتميز هذه الطريقة عن غيرها بأنها حمالة أوجه، إذ قد تتعدد الإحالات التي يقتضيها اللفظ الواحد، وبذلك فهي متميزة من هذا الوجه عن «أداة العبارة».

وكل هذه الأدوات نجدها مستعملة في قصة «الريح والجذوة»، لذلك نترك الحديث عن الجانب التمثيلي فيها لحين الوقوف على الجانب التطبيقي من الموضوع.

## الجانب التطبيقي:

### أ - العنوان: بين رمزية التضمين وتضمين الرمز:

تشرح هذه الأدوات التي سبق ذكرها دلالة العنوان الذي اخترته لهذه الدراسة، إذ اعتبرت الرمز عن طريق التضمين، رمزية تضمين. فالتضمين عادة يدرس في باب التناص لا في باب الرمز. ولكنه لما تجاوز معنى التضمين، الذي هو استعارة كلام من كلام لغرض بديعي، إلى أن يكون ذا دلالة رمزية، احتجت إلى تبين هذا التميز لمعرفة أن حديثي في التضمين لن يخرج عن هذه الدلالة إلى غيرها. فقلت: رمزية التضمين. ولما كانت بقية الحديث إنما هي في تضمين الرموز بأدواتها المختلفة لا غير، دون أن يكون في ذلك إشكالٌ كالإشكال السابق سميتُ ذلك: تضمين رمز. وصغت من هذين الطرفين عنوان هذه الدراسة.

على أنه قد تتوافق رمزية التضمين كما عرفتها مع التضمين مطلقاً في أمرٍ، وهو خروج النص المضمن عن مقصده الأول إذا كانت «الألفاظ المشتركة صالحة لأن يدل بها على ذلك»[٦]. ومثال هذا النوع تضمين ابن الرومي لقول مهلهل:

**فلولا الريح أسمع من بنجد**
**صليل البيض تُقرع بالذكور**

أبيات هجاء[٧]. إلا أن خروج التضمين في رأيي، إذا كان ذا دلالة رمزية، قد يكون أوسع من هذا، لأنه قد يخرج عن مقصده الأول، ويخرج عن مقصد السياق نوع خروج.

### ب - الرمز بين الكشف والتركيب:

أقصد بتركيب الرموز الجمع بينها للتوصل إلى صورة عامة للعمل الأدبي وهذه غاية لا أطلبها لاعتقادي أن قصة «الريح والجذوة» محتملة لأكثر من تركيب، وأن صاحبها لم يكتبها لنضع نحن عليها حاشية،ولكنه كتبها لتتعدد أساليب قراءاتها بتعدد القارئين، وإلا لكان قد تجنب استعمال الرمز أصلاً. فوظيفة الرمز، في نظري، هي تكثيف الدلالة وتنويعها وتعميق أدبية النص دون الخروج إلى إخفاء المعنى وتضليل القارئ. والرمز بهذه الشروط وبتلك الأدوات التي سبق ذكرها وبتلك الغايات، لا تكفي معه الموهبة المجردة، بل لابد مع ذلك من ثقافة واسعة. فالثقافة هي التي تدل على مكامن الرموز ومخابئها، كما أن الموهبة هي التي تسعف على حسن إيرادها واستعمالها.

وتركيب الرموز للتوصل إلى الصورة للعمل الأدبي شيء، والكشف عنها والبحث في ضوابطها وجوامعها شيء آخر. لأن الكشف عن الرمز مؤد بالضرورة إلى الكشف عن مشابهه، والكشف عن المتشابهات موصل إلى الكشف عن نظام هذه المتشابهات. لذلك أقول: إنني مع صريح نظري عن التركيب لم أصرفه عن البحث في نظام الرموز في هذه القصة. حيث أدت محاولة كشف تنوع رموز د. حسن الوراكلي وغناها إلى البحث في جوامعها التي تدل على أنها رموز غير مشتتة، ولا موضوعة على غير نظام. وأدى النظر في هذه الجوامع إلى القول بأنها محاور وثنائيات تعود كلها إلى ثنائية جامعة ومحور ضابط هو محور «النجاة والهلاك».

ج - ثنائية النجاة والهلاك في رموز «الريح والجذوة»:

١ -تعد ثنائية النجاة والهلاك ثنائية تقوم عليها حياة الإنسان كلها، فهو في مجمل حياته متردد بين هذين القطبين، بل إنه يؤول بعد حياته إلى أحد هذين المصيرين، لأن الجنة قمة النجاة، والنار قمة الهلاك. فبناء القصة في جانبها الرمزي خاصة على هذه الثنائية رجعٌ بمحاورها إلى قضية كبرى عليها قيام العالم وإليها مآله. وكون الضابط قضية تستحق أن يدور عليها الكلام من أساسيات الأدب الإسلامي في نظري، لأن الكلام يعظم بعظم موضوعه ويسفل بسفالته. ولأن المتأمل لكلام رب العالمين وكلام رسوله الكريم ﷺ يراه قوي الارتباط بجليل الموضوعات، أو مرتفعاً بها إلى جليل القضايا. وليس يعني هذا أنه لا يليق بالأديب أن يتعرض للمواضيع العادية، ولكنه يعني أنه مع تعرضه لها عليه أن يرتفع بها إلى أن تكون متصلة بقضايا عليها مدار الكون. وكل المواضيع صالحة لأن تكون كذلك، وإنما براعة الأديب في تنبهه لنوع من أنواع هذا الاتصال. وهذا الذي نسميه رؤية إسلامية، ولكنها رؤية إسلامية تستخرج من الكلام، وليست رؤية وعظية تظهر على سطح الكلام. فبذلك تتحقق الأدبية ويمكننا الحديث عن أدب إسلامي لا عن مضمون إسلامي في الأدب.

٢ - تظهر هذه الثنائية في القصة عن طريق أسلوبين:

**أولهما:** طريق تنوع رمزية اللفظ الواحد.

**وثانيهما:** طريق التقابل.

فأما الطريق الأول فيظهر في جملة مواضع منها: المطلع، في قوله: «رماد، رماد، رماد»[٨] وتظهر ثنائية النجاة والهلاك هنا في كون لفظ «الرماد» له رمزية إيحائية[٩] مزدوجة نسميها إحالة ذهنية، فالإحالة الذهنية الأولى هي: الكرم والعطاء، لأن الرماد دليل على كثرة نصب القدور للأضياف. وفي حديث أم زرع أنها قالت: زوجي عظيم الرماد، أي كثير الأضياف.

والإحالة الذهنية الثانية، هي التدمير والهلاك، وفي الحديث: سألتُ ربي أن لا يسلط على أمتي سنة فترمدهم فأعطانيها، أي تهلكهم»[١٠].

ومنها قوله: «لا أحد يعير الاهتمام للحديث عن قرية ظالمة»[١١]. إذ يرتبط وصف القرية بالظالمة في القرآن الكريم بالإهلاك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[١٢]. وقوله سبحانه: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾[١٣]. وتدل صيغة التكثير في الآيتين على قوة هذا الارتباط. فيكون للقرية الظالمة رمزية عن طريق العبارة[١٤] هي رمزية الإهلاك والتدمير، غير أن هذا الإهلاك مقصور على الظالمين، وبذلك يظهر الوجه الآخر للثنائية وهو نجاة المؤمنين بهلاك الظالمين.

ويشبه هذا أيضاً قول الدكتور حسن الوراكي في قصته: «فتحت أبواب السماء بماء أخضر. ليس بالعذب ولا بالأجاج، اختلجت به عروق الأشجار على سفوح جبل الصراخ والصمت. وشهق بمقدمه المحار في قيعان بحر الصراخ والصمت»[١٥].

إن فتح أبواب السماء فيه إشارة[١٦] إلى قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾[١٧]. وذلك عند الحديث عن الطوفان الذي أصاب قوم نوح، وقد كان فيه إهلاك للكافرين ونجاة للقلة التي آمنت مع نوح.

٣ - وأما الطريق الثاني وهو طريق التقابل فهو الأكثر استعمالاً في هذه القصة. وذلك بداية من عنوانها: «الريح.. والجذوة». وقد نشرت هذه القصة في مجلة «المشكاة» في عددها الأول (أبريل: ١٩٨٣م) تحت عنوان: الجذوة. ثم لما أعاد الدكتور الوراكلي نشرها ضمن هذه المجموعة سنة ١٩٩٩م غير عنوانها إلى: الريح والجذوة. فكأن هذا التقابل كان مقصوداً.

والتقابل هنا عباريُ الرمزية[١٨]، ويدرك هذا بمعرفة أن الريح في القرآن مرتبطة بالعذاب ومقترنة بالصقيع والبرد الشديد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١٩]. فالريح أداة إهلاك. وأن الجذوة رمز للنجاة والفوز، فقد كان طلب موسى للجذوة مفتاحاً لتلقيه الرسالة. قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[٢٠]. وبذلك يتقابل الرمزان على أنه يمكن القول: إن للريح في غير القرآن رمزاً آخر، إذا أخذنا به كان طريقها طريق تنوع رمزية اللفظ الواحد، لأن هذه الريح هي التي هزم بها الله تعالى الأحزاب. فتكون الريح بذلك دالة على قطبي هذه الثنائية ويكون الدكتور حسن الوراكلي قد جمع بين الطريقتين في هذا العنوان، وهو ما يوضحه الرسم التالي:

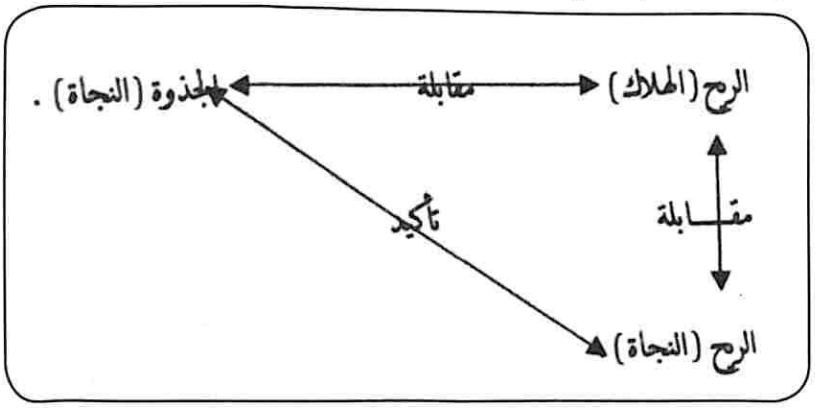


ويدل هذا الرسم على أن الغلبة في الدلالة الرمزية للعنوان للنجاة لا للهلاك، وتلك خصيصة من خصائص الأدب الإسلامي وهي خصيصة التفاؤل.

٤ - وهناك مقابلات أخرى في القصة دل عليها النظر يمكن ذكرها مجموعة، وتقسيمها إلى رموز دالة على هلاك، ورموز دالة على نجاة.

والحقيقة أنني لم أجد من الرموز الدالة على الهلاك غير ما سبق ذكره إلا رمزين أحدهما إيحائي والآخر عباري، فالإيحائي: السد، والعباري: الريح العاتية.

وقد ورد السد رمزاً في قول الدكتور حسن الوراكلي: «أحدث شخص، قيل أشخاصٌ... ثقباً في السد الذي كانت القرية تبعد عنه آلاف الأميال والأميال...»[٢١].

وإنما اعتبرت السد رمزاً للهلاك في الثقافة العربية لأنه مرتبط في التراث بانهيار سد مأرب، وفي الحديث النبوي الشريف بقرب خروج يأجوج ومأجوج، فقد ورد في الصحيحين وفي سنن الترمذي وابن ماجة ومسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ «استيقظ.. من نوم محمراً وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، يرددها ثلاث مرات، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم[٢٢] يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد عشراً»[٢٣]، ووردت عبارة (الريح العاتية) رمزاً في قول د. حسن الوراكلي: «في الهزيع الأخير من الليل انطلق رجال الأمن يطاردون ريحاً صرصراً عاتية»[٢٤]. والريح الصرصر[٢٥] العاتية هي أداة من أدوات الإهلاك في القرآن

الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٢٦]. وفي إهلاك الكافرين نصرة للمؤمنين، فهي، في نظر المؤمن، أداة نصرة أيضاً. لذلك جعلها صاحب القصة تكشف عن جذوة نار، وقد سبق الكشف عن البعد الرمزي للجذوة فيما سبق[٢٧].

٥ - وعلى العكس الرموز الدالة على الهلاك، فإن الرموز الدالة على النجاة أوفر عدداً، وقد وردت كلها إشارية باستثناء واحد منها ورد إيحائياً عن طريق التضمين. وهذه هي جذع النخلة والجبل والبحر. وأما الذي ورد إيحائياً عن طريق التضمين، فهو قول د.الوراكلي: «ليتني أكون جذعاً حين يضوئ الفجر»[٢٨]. وقد بينا أن الرمز عن طريق الإيحاء حمال أوجه، وهو هنا حامل لوجهين إذ لهذه العبارة إحالتان ذهنيتان مختلفتان، **أولاهما**: تستحضر قول دريد بن الصمة يوم حنين:

**يا ليتني فيها جذع**

**أخب فيها وأضع**

**وثانيهما**: تستحضر قول ورقة ابن نوفل، لما أخبره رسول الله خبر ما رأى: هذا الناموس[٢٩] الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك»[٣٠]. والإحالة الأولى فيها حنين إلى نصرة الكفر، بينما الإحالة الثانية فيها حنين إلى نصرة الإيمان، وهو ما يرجحه قول صاحب القصة: «... حين يضوئ الفجر». لذلك كان جعلها في هذا الباب أولى من جعلها في باب الهلاك.

وأما بقية الرموز الدالة على النجاة والتي وردت إشارية كلها، فأولها: جذع النخلة، في قول د.الوراكلي: «نظر طويلاً إلى جذع النخلة، ثم تحول ببصره إلى حيث تتوالد الرياح في الأفق الشرقي كأفراس الأساطير في بلاد الصقيع»[٣١]. وترتبط النخلة في القرآن الكريم بالولادة، إذ ورد ذكرها في موضعين كلاهما متعلق بولادة المسيح عليه السلام، وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٣٢]. وقوله عز وجل: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[٣٣]. وترتبط النخلة في الحديث النبوي الشريف بالمؤمن والإيمان. فقد أخرج البخاري في صحيحه حديثاً عن ابن عمر أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ماهي؟. فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدالله: وقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله. قال: هي النخلة»[٣٤]. وقد حنت النخلة التي كان يخطب عندها

رسول الله ﷺ حتى كادت تنشق، وذلك لما عُمل له المنبر ﷺ[٣٥].

وثانيها: الجبل، وهو رمز في الثقافة الإسلامية للقوة والخضوع لله سبحانه وتعالى. قال عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣٧]. وقال رسول الله ﷺ عن أُحُد: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[٣٨]. وهو في المعرفة الصوفية رمز للكشف لارتباطه بقصة سارية ابن زنيم. وهو رمز للنجاة لأن جيش سارية نجا لما سمع قول عمر: يا سارية الجبل!، وعلى هذه العبارة بنى د. الوراكلي قوله: «إلى الجبل. إلى الجبل..»[٣٩]. وقول د.الوراكلي: «هرعوا إلى الجبل.. تتقدمهم الدواب والأنعام»[٤٠]. يؤيد هذا المعنى، لأنه جعل من الجبل معادلاً موضوعياً لسفينة نوح، لما جعل الدواب والأنعام تركب «سفينة الجبل».

**وثالثها.** البحر: وهو رمز للمعرفة والنجاة. فأما كونه رمزاً للمعرفة فلارتباطه بقصة التقاء موسى بالخضر عليهما السلام[٤١]، وأما كونه رمزاً للنجاة فلكونه كان سبباً لنجاة موسى عليه السلام ومن معه من فرعون وجنوده. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٤٢]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٤٣].

لذلك فإن تحول الناس عن الجبل إلى البحر في قول د.الوراكلي: «تحول الناس عن الجبل إلى البحر... (إلى البحر، إلى البحر...) هرعوا إلى البحر.. تتقدمهم الدواب والأنعام!»[٤٤] هو تحول من أداة نجاة إلى أداة نجاة أخرى، أو هو إلحاح في طلب النجاة. لذلك جعل الدواب والأنعام هنا تتقدمهم كما جعلها تتقدمهم عندما هرعوا إلى الجبل. ولنقل هنا كما قلنا قبل: إنه جعل من البحر كما جعل من الجبل معادلاً موضوعياً لسفينة نوح، لأن سفية نوح التي أنجاها الله تعالى كان فيها من الناس والدواب والأنعام، ﴿من كل زوجين اثنين﴾[٤٥]، وجعله البحر الذي هو محل جريان السفن معادلاً موضوعياً للسفينة، قد يُلحق بنوع من المجاز مرسل مستحدث علاقته المحلية. ولا يخفى التناظر الذي بين البحر والسفينة إذ إن كليهما منتم إلى نفس الحقل الدلالي، وهو حقل البحر وما تعلق به. إلا أن السفينة عادة إنما تسعى إلى النجاة من البحر، ويسعى راكبوها إلى النجاة منه بها. فجعله البحر أداة للنجاة غاية في بعث الطمأنينة باستعمال الرمز، في قصة يغلب على ألفاظها معجم الذعر والعويل والصراخ والقيظ والكآبة والقتامة وما إلى ذلك. فيكون الرمز هنا أداة من أدوات «تأنيس المعاني» إذا جاز لنا في هذا المقام أن نستعير من حازم القرطاجني مصطلح التأنيس.

وتتحرك هذه الجموع في قصة «الريح والجذوة» للنجاة. فيقول د.الوراكلي:

«توقفت الجموع..
الناس والدواب والأنعام!
تحركت الجموع..
الناس والدواب والأنعام!
بلغت القلوب الحناجر..»[٤٦].

إن هذه العبارة الأخيرة تدل على أن الجموع في غاية الكرب، وهذا قد ينقض ما زعمته بأنها كانت في سبيلها إلى النجاة، إلا إذا أدركنا أنه ضمَّن هنا طرفاً من قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[٤٧] فالتضمين هنا فيه إشارة إلى ما حدث في الخندق عندما أعقب شدة الكرب نجاة ونصر. وهذا ما لا تدل عليه العبارة ويدل عليه التضمين، وإذا دل على ذلك فقد أصبح رمزاً له، ويوضح

ذلك الرسم التالي:

بلغت القلوب الحناجر = الكرب ← التضمين ← الأحزاب ← الفوز والنجاة

فالتضمين هنا هو الذي أكسب هذه العبارة معناها الجديد، وهو الذي جعل معناها موحياً بالدلالات التي توحي بها كلمة «الأحزاب». لذلك أقول هنا: إن رمزية التضمين تميزت بدلالتها على عكس ما تدل عليه العبارة. وبأن هذه العبارة التي يظهر لأول وهلة أنها قمة التعبير عما يدل على الهلاك هي في الحقيقة قمة التعبير عما يدل على النجاة بعد كرب شديد.

وقد استعمل الدكتور الوراكلي هذا الأسلوب المعتمد على مخالفة دلالة الرمز لدلالة العبارة في مكان آخر من قصته مع تغيير أداة الرمز من رمز تضمين إلى ما سميته رمز إيحاء، وذلك في قوله:

«أشرفت الجموع على بوابات المدينة، مشلولة، خائرة القوى..

أرادوا اجتياز البوابات، فمنعوا!

هنالك.. دعوا إلى إبراز (هوياتهم)!»[٤٨].

ذلك أن العبارة هنا تدل على أنهم منعوا من الدخول، والإحالة الذهنية الحاصلة من هذه العبارة توحي بأنهم رفضوا الغلبة لأنهم مِنعوا فامتنعوا، لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾[٤٩]. فالمعنى الأول هو معنى المغلوب الذي قبل أن يكون مغلوباً، لأنه مشلول، خائر القوى[٥٠]. والمعنى الثاني هو معنى المغلوب الذي قبل ذلك مع سهولة النصر الذي يكفي معه دخول الباب، لأنه متهاون عاص غير تواق إلى النصر.

وأظن أن هذه المخالفة هي إحدى ثلاثة أنواع من المخالفات نجدها في القصة بين دلالة الرمز وغيرها من الدلالات وهي:

١ - مخالفة دلالة الرمز لدلالة العبارة.

٢ - ومخالفة دلالة الرمز لدلالة السياق.

٣ - ومخالفة دلالة الرمز لدلالة المعجم.

لذلك لا يعطي سياق القصة

**الهوامش:**

١ - (ن) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي: ٢٦, ٣٣ دار الكتاب العربي. بيروت. ط. ٨. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢ - إحسان عباس. القوس العذراء. مجلة الأدب الإسلامي: ٩٢.م٤. ع. ١٦. ١٩٩٨م.

٣ - سحاب هَمع: ماطر بثوئه على صيفة هَطِل. والعراص من السحاب: ما اضطرب فيه البرق وأظل من فوق فقرب حتى صار كالسقف ولا يكون إلا ذا رعد وبرق.

٤ - ن. المنهاج: ٣٦٠. (منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم القرطاجني. تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي. ط. ٣. بيروت. ١٩٨٦م.

٥ - ن. مثلاً. تلخيص الخطابة. ابن رشد. ٥٦٤. تحقيق وشرح: محمد سليم سالم. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. القاهرة. ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٦ - المنهاج: ٣٣١.

٧ - ابن رشيق. العمدة: ٧٠٤/٢. ومنهاج البلغاء: ٣٣١. تحقيق: د. محمد قرقزان. دار المعرفة - بيروت. ط١. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨ - الريح والجذوة: ١٣. منشورات المشكاة. ط. ١ ماي. ١٩٩٩م.

٩ - (ن) الحديث السابق عن أداة الإيحاء.

١٠ - (ن) النهاية في غريب الأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (٥٤٤ - ٦٠٦هـ): ٢٦٢/٢. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. المكتبة العلمية. بيروت. ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. والفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري. (٤٦٧ - ٥٣٨هـ): ٨٥/٢. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة. لبنان. ط. ٢.

١١ - الريح والجذوة: ١٤.

١٢ - الحج: ٤٥.

١٣ - الأنبياء: ١١.

١٤ - (ن) الحديث السابق عن أداة العبارة.

١٥ - الريح والجذوة: ١٦.

١٦ - (ن) الحديث السابق عن أداة الإشارة.

١٧ - القمر: ١١.

١٨ - ما قلته عن أداة العبارة.

١٩ - (ن) آل عمران: ١١٧. وتأمل أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

المعاني نفسها التي رأينا الرمز يعطيها، ولا يشي المعجم الذي تغلب عليه ألفاظ الصقيع والرياح والصراخ والعويل، وما أشبه ذلك من ألفاظ دالة على الهلاك بما يشي به الرمز من دلالات نصر ونجاة. غير أن الحديث عن دلالة البناء قد يختلف بعض الاختلاف إذا أدركنا أن القصة تبدأ بقوله: «رماد، رماد، رماد!

الشعل، والجذوات، يا إلهي، تصير... صارت رمادا!»[٥١].

وتنتهي بقوله: «والجذوة تتوهج، تتوهج..

ومنها كان الفجر يقبس أنواره، يضوئ بها الآفاق والسراديب!»[٥٢].

ولنسم بدء القصة بالحديث عن الجذوات وختمها بذكر توهج الجذوة ردا لعجز القصة على صدرها، فيكون قطع الكلام بذكر التوهج أعلق بالذهن، ويكون مصير تلك الجذوات التي كانت رمادا أنها عادت لتوهجها. فيكون بذلك المعنى الدال على نجاة تلك الجذوات من الخبو كتلك المعاني التي دلت عليها الرموز وهي معاني النجاة بعد معاينة الهلاك.

غير أن حصر الرموز المضمنة والتضمينات التي لها قوة الرمز لم يكن هدفاً أولياً في هذه الدراسة، وإنما كانت الغاية منها جملة أمور هي:

**أولاً**: تبيين غنى رموز هذه القصة والكشف عن ذلك.

**ثانياً**: تبيين تنوع هذه الرموز وتنوع الأدوات المستعملة فيها من تضمين أو إشارة أو عبارة أو إيحاء.

**ثالثاً**: تبيين أصالتها وارتباطها بالثقافة الإسلامية.

**رابعاً**: تبيين انتظامها ورجوعها إلى ضابط معين.

**خامساً**: تبيين أنها رموز قد اكتشفها صاحبها لم يحتذ حذو غيره فيها.

**سادساً**: تبيين أنها رموز لها قوة مخالفة السياق دون أن تفقد دلالة الحضور وحضور الدلالة. وهو ما سميته باقتران التخالف والتضاد.

فإن كنت قد استطعت أن أبين ذلك أو بعضه، فذلك من فضل الله تعالى ثم بسبب وفرة المادة التي يقدمها هذا العمل، وإن كنت قد أسأت من حيث ظننت أنني أحسنت، فيشفع لي حسن النية ومحاولة سد ثلمة أراها واضحة في جدار النقد الإسلامي ■

لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ (يونس)، وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ (الأحقاف).

٢٠ - القصص: ٢٩.

٢١ - الريح والجذوة: ١٤.

٢٢ - أي سد.

٢٣ - الحديث بأسانيده ورواياته المختلفة في صحيح البخاري، حديث، ٣٠٩٧و٣٠٩٨ و٣٣٣١ و٤٨٨٣ و٦٥٣٥ و٦٦٠٢ و٦٦٠٣وصحيح مسلم، حديث، ٦١٢٨ و٥١٢٩ و٥١٣٠ وسنن الترمذي، حديث ٢١١٣ وسنن ابن ماجه، حديث ٣٩٤٣. ومسند أحمد، حديث ٨١٤٥ و١٠٤٣٣ و٢٦١٤٥ و٢٦١٤٦ و٢٦١٤٨.

٢٤ - الريح والجذوة: ١٧.

٢٥ - الشديدة البرد أو الصوت.

٢٦ - الحاقة: ٦، ٧. وتأمل قوله سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ (فصلت)، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ( القمر).

٢٧ - (ن) الريح والجذوة: ١٧.

٢٨ - الريح والجذوة: ١٦.

٢٩ - صاحب السر، والمراد: جبريل عليه السلام.

٣٠ - صحيح البخاري: حديث: ٣.

٣١ - الريح والجذوة: ١٤.

٣٢ - مريم: ٢٣.

٣٣ - مريم: ٢٥.

٣٤ -صحيح البخاري: حديث: ٥٩.

٣٥ - صحيح البخاري. حديث: ١٩٥٣.

٣٦ - الأعراف: ١٤٣.

٣٧ - الأعراف: ١٧١.

٣٨ - (ن) صحيح البخاري. حديث: ٢٦٧٥.

٣٩ - الريح والجذوة: ١٤.

٤٠ - الريح والجذوة: ١٤.

٤١ - الكهف: ٦٠ - ٨٢.

٤٢ - الشعراء: ٦٣.

٤٣ - البقرة: ٥٠، وكذلك قال سبحانه: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ (يونس).

٤٤ - الريح والجذوة: ١٥.

٤٥ - المؤمنون: ٢٧. هود: ٤٠.

٤٦ - الريح والجذوة: ١٦.

٤٧ - الأحزاب: ١٠.

٤٨ - الريح والجذوة: ١٧.

٤٩ - المائدة: ٢٣ - ٢٤.

٥٠ - (ن) الريح والجذوة: ١٧.

٥١ - الريح والجذوة: ١٣.

٥٢ - الريح والجذوة: ١٤.